أبو الطيب المتنبي
(١)
سيرورة شعره - قوة المتنبي- عناصر قوته[٢٢]

لي عامان وبعضُ عام لم أرَ ديوان المتنبي، وكنت قبل ذلك لا أدمن قراءته ولا أكثر من مراجعته، وإذا تناولته لا أعكف عليه عكوفي على غيره من شعراء العرب من مثل ابن الرومي والمعري والشريف، وقد أبدأ القصيدة فلا أتم قراءتها، وربما استوقفني بيتٌ في أول مقطع منها فأضع الديوان وأذهب آخذ فيما فتحه لي البيتُ من أبواب التفكير. ولا أزال ماضيًا على سنني حتى أنسى الشاعر وما قرأت له، ولا أذكر أني قرأت له في حياتي قصيدتين في يوم واحد. ولكني على شغفي بغيره، وقلة إقبالي ومواظبتي عليه، وطول الفترات التي قد تمضي قبل أن أعود إليه -أقول: على الرغم من كل ذلك أراني أحفظ من شعره أكثر مما أحفظ لسواه، وإن لم أكن بالقوي الذاكرة، ولا بالذي يحفظ لشاعر، كائنًا من كان، شيئًا يذكر مهما بلغ من حبي له وكثرة مطالعتي لكلامه. وقد أنسى له البيتَ كنت أظنني ذاكرَه ولكني لا أنسى معناه. وقد تعابثني الذاكرة فلا أجد حتى المعنى حاضرًا، ولكني على هذا أحسه، وإن كان يعييني تحديده وإيضاحه، وأشعر كأن أثره شائعٌ في صدري، مستفيض في جوانب نفسي، مالئ لشعاب قلبي. فأقنع بهذا الإحساس الغامض وأستغني به عن المعنى الذي أحدثه، وأستشعر الرضا والغبطة كأني حللتُ مشكلًا أو جلوت معمّى.

---

[٢٢] كتبت هذه المقالات بمناسبة ظهور مؤلف حديث عن المتنبي وقد تناولنا فيها ما أغفله أو أخطأ فيه المؤلف. فموضوعاتنا محدودة بهذا القصد.

ولقد فقدت نسخة ديوانه -أو بعتُها- فلم أشعر بإلحاح الحاجة إليه. وكنت كلما نازعتني نفسي أن أشتريه أقول: ما ضرورة ذلك؟ أليس خيرًا أن يحيا المتنبي في نفسي من أن يعيش على رفٍّ في المكتبة؟ أترى الغاية من الأدب هي اقتناء الكتب؟ لا. وليست هي أن يكون المرءُ كثيرَ الحفظ أو مدمن القراءة لما لا ينتفع به. وحسب المرء من الكتب أثرها في نفسه وفعلها في تهذيبها ورفع مستواها وصقلها. ولخيرٌ له أن يقرأ، وينسى لفظَ ما قرأ بل معناه أيضًا، ما دامت الفائدة قد حصلت. والنفس إذا كانت خصبة مستعدة تنمي البذرة التي غرست فيها، وليس يمنع النماءَ أن البذرة تحت التراب مدفونة.

ولكن لماذا يبقى عندي من كلام المتنبي ما لا يبقى من كلام سواه؟ الذاكرة واحدة وليس هو بأحب إليَّ وأعز عليَّ من الشعراء الفحول غيره، أيكون تعليل ذلك أن حُفّاظ شعره كثيرون وأن أبياته متداولة ملوكةٌ تُساق في كل معرض من معارض الاستشهاد والاقتباس، وأن كثرة سماعي لشعره من أفواه الناس ورؤيتي إياه موردًا في غضون الكتابات -كل ذلك كان من آثاره أن علقت أبيات كثيرة له بذاكرتي؟ هذا التعليل لا يزحزح المسألة عن موضعها قيد أنملة. ويبقى بعد ذلك أن نسأل: لماذا نرى الناس أحفظ لشعره وأكثر رواية وتمثلًا به منهم لشعر غيره؟ وكل ما هنالك من الفرق أن دائرة السؤال اتسعت فصارت عامة تشمل الناس جميعًا بعد أن كانت خاصة قاصرة على كاتب هذه السطور.

وعندنا أن علة هذه السيرورة التي رُزقها شعر المتنبي هي أن في شعره «قوةً» تخطئها فيمن عداه من مشاهير شعراء العرب. وإذ كنا لا نحب أن يكون كلامنا مبهمًا فالأولى والأمثل أن نخرج من هذا التعميم إلى التخصيص، وأن نبين مظاهر هذه «القوة» في المتنبي، وقد لا نحصيها أو نستطيع الإتيان على أكثرها، ولكن هذا لا قيمة

له ولا خطر، وليست غايتنا الاستقصاء فإن المقام أضيق من أن يتسع له، والوقت أقل من أن يعين عليه. وعلى أنه لا حاجة بنا إلى التقصي وحسبنا أن ندل المحتاج من القراء إلى الطريق وليسر هو بعد ذلك على الدرب

لم يكن المتنبي من المكثرين بل من المقلين، وهو على إقلاله لا يُطيل قصائده. وقد حسب له الواحدي ما اشتمل عليه ديوانه فبلغت عدة أبياته خمسة آلاف وأربعمائة وتسعين وهذا كل ما قاله في أكثر من خمس وثلاثين سنة. وقد قال ابن الرومي مثلًا في ثلاثين من قصائده الطوال أكثر من هذا. وهذا على الرغم من طول اتصاله بسيف الدولة وكافور خاصة وبغيرهما من مثل ابن العميد وعضد الدولة. وهذه رواية صاحب «الصبح المنبي» قال: إن أبا فراس الشاعر قال يومًا لسيف الدولة. وكان قريبه: «إن هذا المتسمّى كثير الادلال عليك، وأنت تعطيه كل سنة ثلاثةَ آلاف دينار على ثلاث قصائد»، وهي رواية قريبة من الصحة وإن لم تكن في الصميم من حبة الصواب؛ لأن المتنبي إنما كان يقول الشعر في سيف الدولة إذا عرضت مناسبة لذلك كغزوة أو نحوها ولم يكن فارضًا على نفسه أن يقول ثلاث قصائد في كل عام، ولكن العبارة صحيحة في دلالتها على أن المتنبي كان يُقل من الشعر ولا يُكثر، وإنه كان أشبه بصديق لممدوحه منه بشاعر وظيفته الثناءُ عليه، وكان المتنبي فضلًا عن ذلك يستنكف أن ينشد وهو قائم، وقد بدأ حياته بالتطلع إلى ولاية أمرٍ من أمور الدنيا ولم يزل يطمع في ذلك إلى أن وافاه الحينُ. وفي هذا وحده، فضلًا عن حوادث حياته، دلالة كافية على روحه وأنه من أصحاب الشخصيات القوية التي خُلقت للكفاح والنضال لا للاستخذاء والتمسح بالأقدام، وهذه الشخصية البارزة ظاهرة في شعره وحسبك شاهدًا عليها أنه لما شعر بتغير سيف الدولة دخل عليه وأنشده قصيدة يعاتبه بها وفيها يقول:

وما لي إذا ما اشتقتُ أبصرت دونه ... تنائف لا أشتاقها وسباسبا

وقد كان يُدني مجلسي من سمائه ... أحادث فيها بدرها والكواكبا

أهذا جزاء الصدق إن كنت صادقًا ... أهذا جزاء الكذب إن كنت كاذبًا؟

وهو أشبه بالمحاسبة منه بالمعاتبة. وأدل من ذلك قصيدته التي مطلعها: «واحرَّ قلباه ممن قلبه شبم».

وفيها يقول:

يا أعدلَ الناس إلا في معاملتي ... فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

أعيذها نظرات منك صادقة ... أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

(يعني: أبا فراس وحزبه).

سيعلم الجمعُ ممن ضم مجلسنا ... بأنني خيرُ من تسعى به قدم

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي ... وأسمعت كلماتي من به صمم

أنام ملءَ جفوني عن شواردها ... ويسهر الخلقُ جراها ويختصم

وجاهلٍ مده في جهله ضحكي ... حتى أتته يدُ فراسة وفم

إذا رأيت نيوب الليث بارزة ... فلا تظنن أن الليث يبتسم

إلى أن يقول:

يا من يعز علينا أن نفارقهم ... وجداننا كل شيء بعدكم عدم

ما كان أخلقنا منكم بتكرمة ... لو أن أمركم من أمرنا أمم

إن كان سركم ما قال حاسدنا ... فما لجرح إذا أرضاكم ألم

وبيننا -لو رعيتم ذاك- معرفة ... إن المعارف في أهل النهى ذمم

كم تطلبون لنا عيبًا فيعجزكم ... ويكره الله ما تأتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان عن شرفي ... أنا الثريا، وذان الشيب والهرم
إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ... أن لا تفارقهم فالراحلون هم
شر البلاد بلاد لا صديق بها ... وشر ما يكسب الإنسان ما يَصِمُ
وشر ما قنصته راحتي قنصٌ ... شهب البزاة سواء فيه والرخم
هذا عتابك إلا أنه مقة ... قد ضمن الدرَّ إلا أنه كلم

وليس هذا بكلام مداح مأجور وما كان ليصدر عنه لولا شعوره بنفسه وبحقه، وأنه فوق أن يُعد أحد الأذيال. وقد أنس إليه سيف الدولة على أثر هذه القصيدة وعاد فأدناه، وقال بعض الرواة: وقبَّل رأسه وأجازه.

ومن الإطالة في غير محل لذلك أن نفيض في بيان شعور المتنبي بنفسه، ومعرفته لقدره، وطموحه وبروز شخصيته، وكفى دليلًا على ذلك قوله في أمه:

ولو لم تكوني بنت أكرم والد ... لكان أباك الضخم كونُك لي أما

وهو في شعره يأخذ بيدك إلى ما يريد مباشرة، ولا يطيل اللف والدوران معك إلى غايته. وهذا من أسباب القوة. وليس ممن يهذرون ولا يقدرون قيمة الاقتصاد أو يحشون كلامهم بما يراد به التظاهرُ والمفاخرةُ بسعة المجال وطول الباع، بل هو يدفع إليك المعنى الذي فكّر فيه وأنضجه، تامًّا محبوكًا لا يحتاج إلى زيادة ولا يتأتى نقصُ حرف مما عبر به عنها، كقوله:

ومن عرف الأيامَ معرفتي بها ... وبالناس روّى رمحه غير راحم
فليس بمرحوم إذا ظفروا به ... ولا في الردى الجاري عليهم بآثم

ثم يتركك وشأنك وما يبدو لك في هذا الذي ألقاه إليك، إذا شئت خالفته أو وافقته، أما هو فينام كما يقول ملء عينه ولا يبالي كيف وقع كلامه من نفسك بعد أن ألقاه بلهجة الجزم القاطعة التي لا تردد فيها. ولو كان غيره مكانه لمهد لهذا المعنى وراح يسوق الحجج والأمثلة والشواهد على صحته وسداده حتى يملك، ولأغرق هذه الخلاصة في بحر من الكلام حتى تعود وليس لها أثر محسوس. وأين من يدعي مثلًا أن المتنبي هو الوحيد الذي له معانٍ مستجادةٌ وأبيات متخيرة وأمثال حكيمة؟ أليست دواوين الشعراء حافلة بنظائر ما في شعر المتنبي؟ ولكنها ليست سائرة على الألسن لأن أصحابها لم يرزقوا رجولة المتنبي التي تخرج البيت مخرج المثل، ولم يمنحوا مثله إحكام التسديد إلى الغاية، والاقتصلد إلى الحد الواجب، وحسن تخير الألفاظ التي يؤدي بها المعنى، والحلاوة في سبكها وتعليق بعضها ببعض. وهي صفات قلما يخلو منها شاعر كبير ولكنها لا تؤدي إلى مثل ما تحسه من القوة في شعر المتنبي إلا إذا اجتمعت، ولو أنه كان كابن الرومي مولعًا بشرح المعنى وتصفيته والتوليد منه، أو كالشريف كلفًا بفخامة اللفظ ورنة الأسلوب وجزالة التعبير، أو كمهيار في حشوه وفتور روحه، أو كالمعري في التردد وكثرة الموازنة والتحليل - نقول: لو أنه كان كهؤلاء لما أجدتْ عليه مزاياه الأخرى. نعم كان يكون له محل رفيع بينهم ولكن شعره لم يكن ليسير هذا المسير، ولا كانت الأمثال والحكم تكثر فيه هذه الكثرة. وقد لا توافقه على ما يذهب إليه من الرأي ولكنه لا يسعك إلا أن تحترم منه ما تحسه في شعره من عمق الاقتناع، ومن قوة الجزم البات، وإلا أن تتأثر بطريقته المباشرة في العبارة عن فكرته، وأن تشعر بقيمة اقتصاده وما ينم عليه ذلك من يقينه أن الأمر لا يحتاج إلى إطناب وإسهاب، وأنه بديهي يلمس السداد فيه ويحس وإلا أن تفتنك موسيقية الأسلوب وحلاوته وإن كانت أشبه بموسيقى الحرب!

ولكن المتنبي كثيرًا ما يُزهى بقوته هذه فيسيء استعمالها ويأتي بالثقيل والذي تستك

منه المسامع، وبالضعيف المهلهل. ولهذا كثرت السفاسف وحفل بها شعره وإن كان كثير من ذلك مما قاله في صباه أو مما تعمده ولا عجب! فإن عثرة الوثّاب شديدة.

obeikandl.com

(٢)
شخصيته وجوانبها - موقفه من كافور

يقول ابنُ رشيق في كتاب العمدة: «ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس»، ووُفق بهذه العبارة الوجيزة إلى ما عجز عنه سواه من النقاد والشُّراح والخصوم والأنصار. والواقع أننا لا نعرف شاعرًا آخر كان له من الشأن ما كان للمتنبي، أو أحدث في عالم الأدب مثل ضجته، وأثار من العداوات المرة بعض ما أثار، حتى ولا ابن الرومي الذي بسط لسانه في كل عرض حتى خافه القاسم وأشفق أن يستطيل عليه بمثل ما وصم به غيره فدعاه إلى الطعام ودس له السم فيه. وحسبك دليلًا على عمق ما تركه المتنبي من الأثر في بعض النفوس قول الجرجاني عن فريق خصومه: إنه -أي هذا الفريق- «يسابقك إلى مدح أبي تمام والبحتري ويسوّغ لك تقريظ ابن المعتز وابن الرومي حتى إذا ذكرت أبا الطيب ببعض فضائله وأسميته في عداد من يقصر عن رتبته امتعض امتعاض الموتور، ونفر نفار المضيم، فغض طرفه، وثنى عطفه، وصعّر خده، وأخذته العزة بالإثم».

ولا يُعقل أن تكون علة ذلك أن شعر المتنبي يهيج هذا النفار، ويغري بذلك الامتعاض، ويشعر القارئ كأنه بطبيعته وتر أو ضيم. فإنا نقرؤه في عصرنا هذا فنوافقه أو نخالفه، ونستجيد قوله أو نسترذله، ونعجب به أو لا نعجب، ولكنا لا نحس شيئًا من هذا الذي يصفه الجرجاني في كتاب الوساطة. ولا شك أن الناس كانوا مثلنا على عهده ولكنهم كانوا فريقين: فريقًا يراه ويعرفه ويبلو منه بعض صفاته، وفريقًا لا يتأدى إليه سوى شعره ولا يحكم عليه إلا به وبأخباره مثلنا. وقد رُوي عن أحد النحاة، وأسمه أبو علي الفارسي، أن بيته كان في طريق المتنبي إلى

عضد الدولة، وكان أبو علي هذا يستثقله ولا يرتاح إلى ما يأخذ به نفسه من الكبرياء، وكان ابن جني كثير الإعجاب بالمتنبي يكره من يذمه ويحط منه ويسوءه إطناب أبي علي في ذمه، واتفق أن أبا علي هذا قال يومًا: «اذكروا لنا بيتًا من الشعر نبحث فيه، فبدأ ابن جني فأنشد:

حلــتِ دون المــزار فــاليوم لــو زر ... تِ لحــال النحــول دون العنــاق

فاستحسنه أبو علي واستعاده، وقال: لمن هذا البيت فإنه غريب المعنى؟ فقال ابن جني: للذي يقول:

أزورهــم وســواد الليــل يــشفع لي ... وأنثنــي وبيــاض الــصبح يغــري بي

فقال: والله هذا أحسن، فلمن هذا؟ فقال: للذي يقول:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا ... مضر كوضع السيف في موضع الندى

فقال: وهذا أحسن والله! لقد أطلت يا أبا الفتح فأخبرنا من القائل؟ قال: هو الذي لا يزال الشيخ يستثقله ويستقبح فعله وزيه وما علينا من القشور إذا استقام اللب؟ قال: أظنك تعني المتنبي؟ قال: نعم، قال: والله لقد حببته إليَّ... إلخ».

نقول: ونحن لا نطمئن كثيرًا إلى أمثال هذه الروايات ولا نمنحها ثقتنا التامة، ونشتم من أكثرها رائحة التأليف والاختراع، ولكن هذه الرواية في ذاتها معقولة وإن كان يلاحظ أن ابن جني لم يتخير أجود ما للمتنبي وما يصح أن يبهر من شعره، ولكنا نحسب ابن جني تعمد أن لا ينشد من كلام أبي الطيب ما عليه طابعه الخاص، مخافة أن يفطن أبو علي فيزهد في الاستزادة ويفوت على ابن جني غرضه ويقطع عليه متوجهه، فآثر صاحبنا أن ينشده من الأبيات ما قدر أن يكون أوقع في نفس لغوي نحوي مثل أبي علي الفارسي. على أننا إنما سقنا هذه القصة شاهدًا على أن «شخصية»

obeikandi.com

المتنبي هي التي أقامت قيامةَ الناس في زمنه وجعلتهم لا يعدون فريقين: أنصارًا متعصبين وخصومًا متعنتين. وذلك ما تفعله كل شخصية قوية، كالعاصفة لا يبقى أحد إلا عُني بها واكثرت لها.

وما حاجتنا إلى القصص والأخبار نسوقها ونستشهد بها على ضخامة شخصية المتنبي؟ إن شعره أصدق راوٍ وأوثق شاهد. وإذا كنا في حاجة إلى شاهد من غيره فكفى ما قاله رجل ساذج بفطرته في رثاء المتنبي لما بلغه قتله، وهو رجل يدعونه أبا القاسم المظفر بن علي الطبسي لا نحسب أديبًا قرأ له أكثر من هذه الأبيات:

لا رعى الله سرب هذا الزمان ... إذ دهانا في مثل ذاك اللسان

ما رأى الناس ثاني المتنبي ... أي ثانٍ يُرى لبكر الزمان؟

كان من نفسه الكبيرة في جيشٍ ... وفي كبرياء ذي سلطان

هو في شعره نبيٌّ ولكن ... ظهرت معجزاته في المعاني

والبيت الثالث هو الشاهد. وقد فطن فيه صاحبنا أبو القاسم إلى الحقيقة، وانظر بعد ذلك إلى قول المتنبي نفسه من قصيدة له يهنئ فيها كافورًا ببناء دار:

فارمِ بي ما أردت مني فإني ... أسدُ القلب آدميٌّ الرواء

وفؤادي من الملوك وإن كا ... ن لساني يُرى من الشعراء

وإنه لكذلك، وما به من عيب إلا ما تكشف عنه الشهرة. والشهرة إذا استفاضت، صار صاحبها هدفًا لعيون الخلق وألسنتهم، تلك تفلى وتنقب، وهذه تروى وتسرد، حتى تعود كل كلمة لصاحب الشهرة محفوظة، وكل حركة ملحوظة، وكل عمل محسوبًا، وكل رأي مكتوبًا، وحتى تشغل التوافهُ من أعماله، والفلتاتُ من حركاته أو أقواله، أكثر من محلها الصحيح، فيشتهر بالبخل وقد لا يكون كزًّا بخيلًا، ويُوصم

بالجبن ولعله أجرأ ذي قلب، وهذا هو الذي مُني به المتنبي.

ولقد ذكرنا في مقالنا السالف أنه لم يكن يعد نفسه شاعرًا يُثني على سيف الدولة ويدوّن وقائعه وحسناته ويمشي في ظله، بل صديقًا وكفئًا، وأوردنا من شعره بعض ما ينم على ذلك، ولم يكن حيال كافور إلا كذلك. تأمل قوله وهو يهنئه:

وأنا منك لا يُهنئ عضو ... بالمسرات سائر الأعضاء

ولو سوى المتنبي لشعر بالضعف أمام القوة المادية التي يملكها الملوك الذين غضب عليهم وجفاهم وهجاهم. ولكنه كان يشعر بقوة لدُنيّة تكافئ في نظره قوة الجيوش وبأسها، بل كان يحس أن في وسعه أن يعتو ويسطو كذلك على العاتين والساطين، فمن ذلك قوله لما خرج من مصر:

لتعلم مصر ومَن بالعراق ... ومَن بالعواصم أني الفتى
وأني وفيتُ وأني أبيت ... وأني عتوت على من عتا

ولو شاور الحزمَ الدنيوي لما أصدر هذا الإعلان، ولا أشهر هذا الإنذار، ولخطر له أن يتقرب إلى من نابذهم قبل مضيه إلى مصر كسيف الدولة على الأقل. ولكن المتنبي ليس من هذا الطراز لأنه لا يعرف ضعف النفس ولو خلت يده من كل وسائل البطش وكثر عُداته وقل إخوانه. فنفسه أبدًا شابة قوية على الأيام كما يقول:

وفي الجسم نفسٌ لا تشيب بشيبة ... ولو أن ما في الوجه منه حراب
يغير مني الدهرُ ما شاء غيرَها ... وأبلغ أقصى العمر وهي كعاب

لا يكبر به أن يفارق وطنه إذا نبا به مقامه فيه، ولا تحز في عظامه الفاقة ولا يلين عزمه بعد الشقة وكثرة الأعداء وقلة الأسباب إذا وجد ما يركب فيها، وإلا فالسير في المهامة والقفار على الأقدام أشرف وأفخر وأمثل به:

obeikandi.com

غنيٌّ عن الأوطان لا يستفزني إلى بلد سافرت عنه إياب
وعن ذملان العيس إن سامحت به وإلا ففي أكوارهن عقاب

وماذا يهمه؟ إن مطلبه ضخم ومراده عظيم، وعلى قدر علو المطلب تكون صعوبة المرتقى، وهو لعظم ما يحس من ذات نفسه يدرك أنه وحيد في هذه الدنيا، فوطنه وغيره سواء:

أهمُّ بشيء والليالي كأنها تطاردني عن كونه وأطارد
وحيدٌ من الخلان في كل بلدة إذا عظم المطلوب قل المساعد

وهو لعظم رجولته يستنكف من صفات النساء ويتبرأ مما يجملهن حتى من غير أن تدعو مناسبة إلى هذا التبرؤ ويقول: «وما بي حسن المِشَى) أي: إنه ليس جميل المشية، والواقع أنه كان مشاءً قويًّا صبورًا على المشي سريعًا فيه، حتى زعموا أنه كان يوهم أغرارَ البدو أن الأرض تُطوى له، وبلغ من ذلك أنه لما رثى خولة أخت سيف الدولة نعتها بصفات الرجال وأخرجها من جنسها، ولم يرضَ إلا أن يجعلها «غير أنثى العقل»! وإن كانت قد خلقت أنثى، وإلا أن يفضلها على عشيرتها التي نمتها وذلك حيث يقول:

فإن تكن خلقت أنثى لقد خلقت كريمة غير أنثى العقل والحسب
وإن تكن تغلب الغلباء عنصرَها فإن في الخمر معنى ليس في العنب

ومثل ذلك رثاؤه لعمة عضد الدولة حين أشار إليها بضمير المذكر وقال: إن حسن ذكرها ينم على تذكيرها:

يحسبه دافنه وحدَه ومجده في القبر من صحبه
ويظهر التذكير في ذكره ويستر التأنيث في حجبه

قد يقال: إذن فما بال هذا الرجل القوي العاتي لا يرى أن يقصد إلا كافورًا بعد أن فارق سيف الدولة على حين كان كثير من الأمراء يتوقون ويشتهون أن يقدم عليهم. فأحقدهم باطراحه إياهم وصمده إلى كافور؟ والجواب: أنه لم يمدح كافورًا لأنه رآه أهلًا لمدحه، بل طمعًا في ولاية بعض أملاكه، كما هو مشهور معروف. أما المدح فإنا والله نراه تهكم به ولم يثن عليه. وما قرأنا له قصيدة في كافور إلا عثرنا فيها على بيت أو أبيات تُشعر بأن المتنبي كان يركبه بالدعابة ويرى نفسه أجل وأخطر شأنًا من أن يمدحه، ونورد لذلك بعض الشواهد. قال:

أنت أعلى محلةً أن تُهنى ... بمكان في الأرض أو في السماء

ولك الناس والبلاد وما يسـ ... ـح بين الغبراء والخضراء

فمن يرى في قوله هذا مدحًا؟ أي امرئ يقال له هذا ولا يدرك أنها مبالغة قد جاوزت كل حد مع أعظم التسامح حتى انقلبت هجاء؟ ومن الذي يرضيه أن يقال له: إن لك ما بين السماء والأرض؟ أليس هذا فرارًا من التهنئة؟ قد يقال: ولكن المتنبي كثير المبالغات وتلك عادته. حسن! فتأملوا إذن قوله واذكروا أن كافورًا أسود الجلد:

يفضح الشمسَ كلما ذرّت الشمس ... بشمس منيرة سوداء

شمس سوداء تفضح شمس النهار؟ ولقد اضطر المتنبي لما نظم هذا البيت أن يفسر المعنى ويؤوله على خلاف عادته من إلقاء الكلام وترك الناس وشأنهم فيه وجارى ابن الرومي في هذه المرة فقال:

إن في ثوبك الذي المجد فيه ... لضياء يزري بكل ضياء

إنما الجلد ملبسٌ وابيضاض النفس ... خير من ابيضاض القباء

ولم يكتفِ بذلك بل راح يقول له في نفس القصيدة: إنه أمل العيون! وماذا ترى العين في كافور الأسود، الضخم البطن، القبيح السحنة، الغليظ «المشفرين»؟

(يـا رجـاء العيـون) في كـل أرض لم يكـن غـير أن (أراك) رجـائي

أيمكن أن يستقيم المعنى ويعقل إلا على تأويل واحد هو أنه اشتاق أن يبصر عبدَ السوء هذا الذي صارت له في مصر دولة كما يحب المرءُ أن يرى قردًا يقلد الآدميين مثلًا؟

وأدل على شعور المتنبي وهو يمدح كافورًا قوله من قصيدة أخرى:

أمـا تغلـط الأيـام فيَّ بـأن أرى بغيـضًا تنـاءى أو حبيبـا تقـرب؟

ومن أقرب إليه يومئذ من كافور وأبعد من سيف الدولة؟ وما الداعي إلى ذلك، والمناسبة لا تستوجبه؟ ولم يكتفِ ببيت واحد بل أنشأ يقول بعد أن وصف سيره وقدومه إلى مصر:

عـشية أحفـى النـاس بي مـن جفوتـه وأهـدى الطـريقين الـذي أتجنّـب

وهل من المدح أن يقول لك قادمٌ عليك: أن أرشد الطريقين هو الذي تجنبته وأضلهما الذي سلكته؟ وقد زاد المتنبي الطين بلة فقال:

ومـا طـربي لمـا رأيتـك بدعـة! لقـد كنـت أرجـو أن أراك فـأطرب

فجعله هزأة وأضحوكة وقرر أن لا غرابة إذا طربت لما رأيته. وقد فطن ابن جني إلى أن المتنبي أراد الاستهزاء فقال: «لما قرأت عليه -على المتنبي- هذا البيت قلت: جعلت الرجل أبا زنة -وهي كنية القرد- فضحك». وشر من ذلك وأدهى قوله بعد هذا البيت:

وتعـــذلني فيـــك القـــوافي وهمتـــي كـــأني بمـــدحٍ قبـــل مـــدحك مـــذنب

والشطر الأول صريح في السب والهجاء وإن كان قد رقعه في الشطر الثاني.

وحسبنا أن أبا الطيب لما انصرف عن مصر شعر أن عليه أن يعتذر للأدب مما تكلفه من مدح كافور، فقال ما معناه: أن الناس هم الذين أحوجوه إلى مدحه، وأن هذا المدح كان عبارة عن هجاء للخلق لأنهم اضطروه أن يقصده، وهذا قوله:

وشـــعرٍ مـــدحتُ بـــه الكركـــدن بـــين القـــريض وبـــين الرُّقـــى

فـــما كـــان ذلـــك مـــدحًا لـــه ولكنـــه كـــان هجـــو الـــورى

ولم يكن يخفى عن كافور أنه ما قصده حبًّا فيه بل ليستعين به على كبت خصومه، فقد كان يقول له في وجهه أن قومًا خالفوه في مجيئه إلى كافور ولم يسايروه إليه استنكافًا فذهبوا شرقًا وحضر هو:

ومـــا شـــئت إلا أن أذل عـــواذلي عـــلى أن رأيـــي في هـــواك صـــواب

وأعلـــم قومًـــا خـــالفوني فـــشرقوا وغرّبـــت، أني قـــد ظفـــرت وخـــابوا

وما هذا من المدح في شيء على الرغم من احتراسه في الشطر الثاني من البيت الأول.

(٣)
اعتراض مدفوع - المتنبي ومظاهر الرقة - طماحه - بعض مشابه من نابليون

تلقيت اليوم رسالة من الأستاذ الشيخ عبد العظيم يوسف ينكر فيها عليَّ بعض ما ذهبت إليه في كلامي على شخصية المتنبي ويؤاخذني على قولي: «وهو لعظم رجولته يستنكف من صفات النساء ويتبرأ مما يجملهن حتى من غير أن تدعو مناسبة إلى هذا التبرؤ»، ويقول: «وما بي حسن المشى؛ أي: أنه ليس جميل المشية، والواقع أنه كان مشاء قويًّا صبورًا على المشي سريعًا فيه.. إلخ».

وأنا اجترئ من رسالة الأستاذ بما يمس الموضوع دوني، قال تعليقًا على هذه الكلمة: «وهذا رأي إذٌّ لا تغتبط الخثالة من الأفناء إذا امتدحت به، ولا ترتاح السفلة من الدهماء إذا ألبسته، بله ذا البطولة كالمتنبي، فصرف هذه الصفات إلى مزنون بالتخنث أحق وأجدر، فارجع فيها بصرك كرة أخرى. ولقد ظهر منك بعض التردد والإنكار لهذا الوصف إذ تقول: «من غير أن تدعو مناسبة إلى هذا التبرؤ» ومنشأ ما فرط وهمك إليه فيما أحسب، هو اقتطاعك لجزء في بيته عما يلتحم به قبله وبعده، وتأويلك له على حسب ما يتبادر إلى الذهن لأول وهلة من لفظه، فجاء معناه كما ترى. وقبل مساقِ البيت مشدودًا بأواخي أخوية، أقول: إن قول العرب: ما بي كذا مثلًا معناه ما أكترث به وما أهتم له وما أباليه. أما الجزء المذكور فمن قصيدته التي أثبتها عند وصوله الكوفة من مصر يهجو كويفيرها ونواطيرها الغافلين عن أعمال الثعالب ويصف منازل سيره التي اجتاب ومصاعب سبله التي اجتاز بقوله:

ألا كـــل ماشـــية الخيـــزلى فـــدا كـــل ماشـــية الهيـــدبى
وكـــل نجـــاة بجاويـــة خنـــوف ومـــا بي حـــسن المـــشى
ولكـــنهن حبـــال الحيـــاة وكيـــد العـــداة ومـــيط الأذى

واضح جليًّا أنه يفدِّي الخيل والنياق وضروب سيرها بكل امرأة جميلة حسنة المشية، ويقول: وما بي حسن مشي النسوة؛ أي لا آبه ولا أحفل بمحاسن مشيهن. وتحتمل العبارة وجهًا آخر أن تكون الألف واللام في المشى عوضًا عن ضمير مضاف إليه يرجع، لا إلى المرأة، لكن إلى الخيل والإبل؛ أي أنه لم يؤثرها على النساء لحسن مشيها على مشيهن، كلا فإنه لا يهتم ولا يحفل ما يشتغل به الضعفة من التلهي بالمحاسن البادية ولكنه اعتصم بها فوصل ساحل الحياة وشارف بر السلامة فأعاناه على كيد عداه وكبتهم ودفع أذاهم عنه. ذلك هو المعنى الفحلي تبرق أساريره بأشعة الصواب وهو مراد أبي الطيب في مقام المفاضلة بين الماشيتين».

نقول: والذي يقرأ هذا يحسبنا وصمنا المتنبي بسبة، وطوقناه بعار! أو يتوهمنا على الأقل لم نفهم معنى البيت، وما فعلنا شيئًا من هذا وإنما أردنا أن نتخذ من قوله دليلًا على نزعته. ولا بأس من العود إلى هذه النقطة لنجلوها وندفع الإشكال فنقول: إن الخيزلى هذه مشية يصفونها بأن فيها استرخاء وتفككًا من مشية النساء، والهيدبى مشية سريعة للإبل والخيل، والنجاة الناقة السريعة التي تُنجي راكبها، والبجاوية نسبة إلى بجاوة وإليها تُنسب النوق. ومعنى الأبيات الثلاثة: فدت كل امرأة تمشي الخيزلى كل ناقة تمشي الهيدبى؛ أي أنه ليس من أهل الغزل وليس به حب النساء وإنما هو رجل أسفار يحب كل ناقة سريعة السير توصل إلى الحياة وتكيد الأعداء وتدفع الأذى.

هذا هو المعنى الصريح الذي لا يحتاج إلى تأويل ولا يستلزم أن نحل الألف واللام محل ضمير محذوف مضاف إليه، والذي لم نتردد -كما يزعمنا الأستاذ- في استخلاص مدلوله وإضافته إلى أمثاله مما سقناه. وقد قلنا: إنه رجل قوي عظيم الإحساس بالرجولة ومقتضياتها، وإن إحساسه هذا ظاهر من استنكافه الطراوة والرخاوة، ونفوره من نسبة شيء من ذلك إليه في نفسه أو فيما هو جاعله أداة إلى غايته. وليقل الأستاذ ما شاء، فإنه يبقى أن في الأبيات تعريضًا بمشية النساء المسترخية، وذكرًا لزهادته فيها وعزوفه عنها، وهذا شأن أبي الطيب في كل حالاته، وهو لا يكره التطري في المشية وحدها، بل يتجاوز ذلك إلى كراهة الترف والنعومة في جميع مظاهرهما، وإذا كان قد بقي بعد الذي سقناه في كلمتنا السابقة مستزاد فإليك قوله من قصيدة يمدح فيها كافورًا:

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه ومركوبه رجلاه والثوب جلده

ولكن قلبًا بين جنبي ما له مدى ينتهي بي في مراد أحُدُّهُ

يرى جسمه يُكْسَى شفوفًا تربه فيختار أن يُكْسَى دروعًا تهده

والشفوف هي الثياب الرقيقة، وتربه: أي تنعمه، والمعنى ظاهر، يقول: قلبي لا يطلب رفاهية لجسمه بأن يكسوه ثيابًا رقيقة ناعمة، وإنما يطلب لبس الدروع الثقيلة، حتى الثياب الناعمة لا يرتاح إليها وإن كان مضطرًّا أن يلبسها، إذ كان لا يسع أحدًا أن يظل في الدروع وحلق الحديد، وتراه حتى إذا اضطر إلى المفاضلة بين امرأة وامرأة، آثر الساذجةَ الجمال التي لا تكسب نفسها الحسن بالاحتيال والتي لا يكون حسنها إلا طبعًا لا مجلوبًا، ومن قوله في ذلك:

ما أوجه المستحسنات به كأوجه البدويات الرعابيب

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب

أفـدي ظبـاء فـلاة مـا عـرفن بهـا مـضغ الكـلام ولا صـبغ الحواجيـب
ولا بـــرزن مـــن الحـــمّام ماثلـــة أوراكهـــن صـــقيلات العواقيـــب

لقد كان للمتنبي شغلان بمساعيه عن الحياة الرخوة، وعما يروق الضعفاء وأوساط الناس من العيش الناعم اللين. ولقد افتتح حياته بما ختمها به: بطلب ذلك «الشيء» الذي ليس له غاية تعرف، أو حد يوصف والذي يبتر العمر كما قال في صباه:

إذا لم تجـد مـا يبـتر الفقـر قاعـدًا فقم واطلب الشيء الـذي يبـتر العمرا

وهو لا يعرف على وجه الدقة ماذا يريد من الأيام. نعم لقد طلب الحكم، وبغى أن يؤمر على الناس، ولكني أحسب أن لو كان نال ذلك لما قنع به ولا قعد عن الطرب؛ ذلك أن نفسه تجيش برغبة جامحة عنيفة فيما تحسه من أبياته الآتية، وإن كان لم يسعه، ولا يسعك تحديده:

ولا تحـسبن المجـد زقًّـا وقينـة فـما المجـد إلا السـيف والفتكـة البكـر
وتـضريب أعنـاق «الملـوك» وأن تـرى لـك الهبـوات السـود والعـسكر المجـر
وتركـك في الـدنيا «دويّـا» كـأنما تـداول سـمع المـرء أنملـه العـشر

هذا هو الذي يبتغيه. يريد أن يدوخ الدنيا وأن يترك فيها دويًا لا ينقطع أبد الدهر، ولو شاعر غير المتنبي قال هذه الأبيات لجاء البيت الثاني على الأرجح هكذا:

وتـضريب أعنـاق «الرجـال» وأن تُـرى لـك الهبـوات السـود والعـسكر المجـر

ولكن نفس المتنبي فوق هذا، أعناق الرجال العاديين يتركها لعسكره، أما هو فلا يضرب إلا أعناق «الملوك». ولو شاعر غير المتنبي قال هذا وراح في كل شعره يطلب هذا المجد، ويذكر الفتكات البكر، لابتسم القارئ ابتسامة المسرور من هذه المبالغات

الظريفة الجوفاء! ولكنك تقرؤها للمتنبي الفقير، الصغير النشأة، الذي زعموه ابن سقاء، وقال بعضهم في هجائه أن أباه:

عاش حينًا يبيع بالكوفة الماء وحينًا يبيع ماء المحيا

نقول: تقرأ له هذا -وتلك نشأته- فلا تضحك ولا يخامرك شك في صدقه وفي إخلاص سريرته حين يتحدث إليك بهمة نفسه ومطمح قلبه، ونحس أنه لو كان الحظ آتاه وحباه الملك لحاول أن يكون كالإسكندر المقدوني.

ولقد فخر غيره من الشعراء وباهوا بأصولهم، وحدّثوا عن أطماعهم وطلبهم للمعالي، ولكنك لا تجد غيره يسمي ما يطلبه (حقًّا) له! انظر قوله في مستهل قصيدة يمدح بها محمد بن سيار بن مكرم:

سأطلب «حقي» بالقنا ومشايخ كأنهم من طول ما التثموا مرد
ثقال إذا لاقوا، خفاف إذا دعوا كثير إذا شدوا، قليل إذا عدوا
وطعن كأن الطعن لا طعن عنده وضرب كأن النار من حره برد
إذا شئت حفت بي على كل سابح رجالٌ كأن الموت في فمهم شهد
أذم إلى هذا الزمان «أهيله» فأعلمهم فدم، وأحزمهم وغد
وأكرمهم كلب، وأبصرهم عمٍ وأسهدهم فهد، وأشجعهم قرد
ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوًّا له ما من صداقته بد
بقلبي وإن لم أرو منها ملالة وبي عن غوانيها وإن وصلت صد

وبهذا الكلام الشامل يجبه ممدوحه، ومن الغريب، بل مما له دلالة خاصة، أن أحفل قصائده بمثل هذا التحديث عن نفسه والإشادة بها أماديحه، وإن أخلاها من ذلك

أهاجيه، حتى لكأنه يتعمد أن يثني على نفسه ويذكر فضلها قبل أن يتطرق إلى الثناء على ممدوحه!

ولم يكن من يقصدهم من الأمراء والملوك يستخفون بشأنه، أو يقللون من خطره، أو لا يعتدون برأيه، فقد كان اهتمامهم لمعرفة حقيقة رأيه فيهم عظيمًا، يدلك على ذلك ما حكاه عبد العزيز بن يوسف الجرجاني، وكان كاتب الإنشاء عند عضد الدولة، عظيم المنزلة منه قال: (لما دخل أبو الطيب المتنبي مجلس عضد الدولة، وانصرف عنه، أتبعه بعض جلسائه وقال له: «سله كيف شاهد مجلسنا؟ وأين الأمراء الذين لقيهم منا؟» قال: فامتثلت أمره، وجاريت المتنبي في هذا الميدان، وأطلت معه هذا القول، فكان جوابه عن جميع ما سمعه مني أن قال: «ما خدمت عيناي قلبي كاليوم» فاختصر اللفظ وأطال المعنى، وكان ذلك أوكد الأسباب التي حظي بها عند عضد الدولة).

ولكن هذه النفس الكبيرة التي كان منها في جيش، كما يقول صاحبنا أبو القاسم المظفر بن الطبسي، لم تخل من مواضع الضعف وإن كان لها من ظروف حياته ما يبررها أو يجعلها معقولة على الأقل، وأي نفس تخلو؟ ألم يكن نابليون زمن المروءة والفتوة؟ ألم يكن من أقل الناس كرمًا وأريحية ووفاء، ومن أخونهم عهدًا، وأغدرهم ضميرًا وأفجرهم يمينًا، لا يأنف أن يتدلى إلى سرقة الحق، أو يتسفل إلى الكذب، أو يحقد على رجل من أعوانه فيقتله أو يسمه؟ يظلم قواده وينشر في صحيفته الرسمية ما يجب أن يعرف عنه ما لا فيه للحق انصاف. حتى بعد هويّة وبعد أن ذهب إلى منفاه كان يزور الحديث ويختلق الأباطيل ويقلب الحقائق، ولكنه على الرغم من كل ذلك عظيم بمزاياه وإن كثرت عيوبه. وكذلك المتنبي، وإن لم تكن العيوب واحدة. وليس نابليون بالعظيم الوحيد في الدنيا، ولم نسقه مثلًا لأن المعايب مشتركة، بل

«لبعض» مشابه نراها بين الرجلين، فكلاهما وضيع النشأة، على الأقل بالقياس إلى الذروة التي تسنماها والرفعة التي بلغاها كل في ميدانه، وكان كل منهما يحفزه طلب المجد، ولا يدع له قرارًا دون أن يعرف لغايته حدًّا. وكما أن المتنبي يرى أن المجد أن تترك في الدنيا الدوي الذي يصفه، كذلك كان نابليون يقول: «ليست الشهرة إلا ضجة عظيمة كلما اشتدت كان ذلك أذيع لذكرك وأطير لشهرتك، ولتسلم أن القوانين والأنظمة والأمم كلها إلى فناء، ولكن ضجيج الشهرة دائم خالد لا يزال يدوي في آذان الأجيال الآتية»، وكلاهما كان يعلم أن لا وفاء ولا صداقة في هذه الدنيا، ولا يرى ذلك ضائره. وكان نابليون يقول: «ما للرجال والرحمة والرقة؟ ذلك بالنساء أحرى، وأخلق بالرجال أن يكونوا كالسيف مضاءً وكالطود ثباتًا، ومن لم يأنس من نفسه ذلك فلينتحّ عن ميادين الحرب والحكم» ويذكرنا قول المتنبي:

ومن عرف الأيام معرفتي بها ... وبالناس روى رمحه غير راحم

فليس بمرحوم إذا ظفروا به ... ولا في الردى الجاري عليهم بآثم

ولكن بينهما على ذلك من الاختلاف ما بين اثنين عاش أحدهما بالفضيلة، ونجح الآخر في حياته ثم هوى بغيرها.

(٤)
سخافة وحكمة - مقتضيات الخلود - العفو أو التعمد في حكمة المتنبي

أحكي للقارئ قصة شخصية تبقى سخافتها بي عالقة وإن كنت قد تفاديتها، وتدل على مكان المتنبي من الفضل وحكمة الطبع ولولا ذلك ما سقتها: صنعت يومًا قصيدة، هي قصة مروية على لسان بطلها، وجعلت الجحيم مسرحها، وتصورت فيها بعض ما يقع في دنيانا هذه وما تجيش به نفوسنا من شتى العواطف والغرائز الأرضية، ونورد هنا بعض أبياتها في موقف ليفهم القارئ المراد:

ذهبتُ أجوس خلال الجحيم ... وأنفض أجوازها والحجر
فما راعني غير مرأى اللعين ... إبليس يرمقني كالنمر
وأنصفه: إنه كيس ... ظريف، وإن كان ينبوع شر
ولولاه آضت حياة الورى ... كجنات ربك ذات السدر
جمالٌ وليس له مدرك ... وخير ولكن من المفتفر؟
وإبليس فاعلم أبو مرة ... له جرأة الليل إمّا اعتكر
غني بقوته والجلال ... لا يسأل الخلق أن ينتصر
سواء عليه أأنصفته ... أم ارتدت ساحته بالعرر
وما كان يعدم من حزبه ... رسولًا وإن أعوزته النذر
فنازعني الشوق أن أنتحيه ... وخامرني الخوف مما يسر

وأدرك أني لـــــه وامـــــق ... وأني مستعـــــصم بالحـــــذر
فحيـــا وأنغـــض لي رأســـه ... كـــما يفعـــل الأفعـــوان الـــذكر
وقـــال وفي صـــوته نـــبرة ... مـــن الـــسخر شـــائكة كـــالإبر
«رصـــيفي الجليـــل! إذا لم أكـــن ... ركبـــت مـــن الـــوهم شر الخمـــر!
فإنـــك توشـــك أن تنثنـــي ... إلى الله مـــستغفرًا لـــو غفـــر!
ألا انظـــر فتاتـــك تحـــسو الهـــوى ... وتحتـــث مختارهـــا المنبهـــر!
يمـــوج عـــلى عطفهـــا شـــعرها ... إذا أســـقط الوجـــد عنهـــا الأزر
تبـــارك خـــالق هـــذا الجـــمال ... ومـــشبعه بالـــشباب النـــضر!
وطـــوبى لمـــن قـــد غـــدا لـــصقها ... وإن عـــجّ مـــن عنفهـــا أو جـــأر
تعاطيـــه أنفاســـها حـــرة ... وتُلمـــسه جـــسمها والـــشعر
وتـــدفع في صـــدرها وجهـــه ... وتحنـــو عـــلى شـــعره بـــالثغر
وتجعـــل مـــن معـــصميه لهـــا ... نطاقًـــا وتـــدعوه أن يهتـــصر
وتنـــأى وكلتـــا يـــديها لـــه ... وتنـــآد مـــن بعـــد إذ تنـــأطر
وتجذبـــه وهـــو في غمـــرة ... وتـــورده ويـــشاء الـــصدر!
وتجلـــو مفاتنهـــا لا تـــضن ... عليـــه بـــشيء ولا تـــدخر
ويـــأبى الغريـــر ســـوى أن يفـــر! ... فواهًـــا لـــه مـــن ســـعيدٍ بطـــر!

وكنت ضنينًا بها، مزهوًا بفكرتها، أحملها معي إلى حيثما ذهبت،، ثم ضاعت مني مسودتها -ولا أدري كيف حدث ذلك- كما ضاع غيرها، فأسفت، ولبثت زمانًا أشكو افتقادها إلى إخواني، وزاد في ألمي أني لا أذكر منها إلا كلمات أو أبعاض شطور

لا خير فيها، ولعلها أردأ ما في القصيدة. وانقضت شهور وشهور، وهي بين العين والقلب، والذاكرة كإخوان ما عهدتها. ثم أصبحت يومًا على ذكر ماكس نورداو، فتناولت كتابًا له فإذا فيه المسودة الضائعة! وفي هذا اليوم نُعي إلينا ماكس نورداو فأحسست بدافع إلى الموازنة بين مقداري الخسارة والربح، وإلى المقابلة بين العواطف المتعارضة التي حركتها في النفس وفاة هذا العالم الكبير واهتدائي إلى قصيدتي التائهة! ولم يزل يحب بي التفكير ويوضع بهذه المناسبة حتى ذكرت قول أبي الطيب من قصيدة يرثي بها مولى تركيًا لسيف الدولة اسمه يماك:

سُبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها ... مُنعنا بها من جيئة وذهوب

تملكها الآتي تملك سالب ... وفارقها الماضي فراق سليب

ولا فضل فيها للشجاعة والندى ... وصبر الفتى لولا لقاء شعوب

فعدت إلى قصيدتي وتناولت مسودتها ومزقتها يبدي غير آسف على تمزيقها!

وأنت أيها القارئ أفهمت؟ لا أدري! ولكن الذي أدريه أني قلت لنفسي: إن المتنبي أصاب كبد الحقيقة حين قال: إن الموت هو علة الشجاعة والكرم والصبر، ولو اتسع مصراعا البيت لقال: إنه مبعث كل الصفات والعواطف والغرائز الإنسانية جليلها ودقيقها وشريفها ووضيعها. وما على من شاء إلا أن يتصور أن الله حبا الناس الخلود وحماهم الموت. أتظن أن غرائز الإنسان يكون لها حينئذ محل أو عمل؟ المرء خالد. ومتى كان الخلود مضمونًا والموت مأمونًا فلا عمل لغريزة حفظ الذات ولا حاجة بالإنسان إلى الطعام يدفع به غائلة الجوع -وهو أبسط مظاهر الغريزة- لأنه لا غائلة هناك، ويقوي به جسمه لأنه لا حاجة إلى القوة ولا خوف أن يعتريها نقصان أو يصيبها كلال، ولا لزوم للسعي والكدح إذ لا طائل تحتهما ولا ضير من رفع مؤونتهما. والاجتهاد يبطل ويذهب معه كل ما عسى أن يوفق الإنسان إليه من

العلوم والمعارف والاختراعات والاستكشافات، فيعيش الإنسان على أتم ولاء وأصدق وداد مع الميكروبات التي تفتك بالعالم الآن، ويلقي بنفسه في أطغى لجج اليم وكأنه يتمطى على فراشه الوثير، ويساكن الوحوش الضارية التي لم تعد أنيابها ومخالبها تؤذي وتردي، ويهدم المساكن ويرمي بالثياب ويؤثر العريّ إذ ما حاجته إليها؟ وأي سوء يتقيه بها؟ ولا يعود «يستحيي» أن يمشي هكذا عاريًا -كما سنثبت ذلك- بل لا يعود يحس حتى الحاجة إلى النوم لأن جسمه مركب بحيث لا يضمحل ولا ينتابه التداعي أو يعدو عليه الفناء. ولا يبقى ثَمَّ فرقٌ بين إنسان وإنسان، لا شجاعة، لأن معنى الشجاعة الإقدام على الخطر أو ما يتوهمه المرء خطرًا، وليس هناك خطر ما، ولا كرم لأن الفقر والغنى سيان، وما بأحد حاجة إلى شيء، ولا بخل إذ لا كرم ولا خوف من الفقر وما ينطوي تحته من المعاني. والأرض ما الداعي إلى حرثها واستغلالها؟ والمصانع لماذا ننشئها؟ والمتاجر لأية غاية نتخذها؟ والسفن ما إضاعة الوقت في ابتنائها؟ وأي داعٍ للعجلة في الانتقال من مكان إلى مكان، والعمر عمر الأبد لا يحد؟ بل ما الحاجة إلى الانتقال وكل بقعة ككل بقعة؟ حتى الحكومات لماذا نقيمها وننظم أمورنا بواسطتها وليس لنا أمور أو شئون تنظيم؟ والمثل العليا هل ينشدها أحد أو يحلم بها؟ كلا! ولا تبقى هناك آداب ولا علوم ولا صناعات ولا ملاهٍ ولا شيء على الإطلاق إلا جسم خامد لا يحفزه حافز حتى إلى تحريك إصبعه.

بقيت الغريزة النوعية، ومظهرها الحب وغايتها حفظ النوع، وهي تبقى ما بقيت الغاية مطلوبة مسعيًّا إليها. أما إذا أصبحت الغاية موجودة بطبيعة الحال، وصار النوع باقيًا خالدًا لا خوف عليه، فإن الغريزة لا يبقى لها عمل. وإذا بطل عمل الغريزة انعدمت وبطل كل ما نتج عنها من العواطف، وصار الرجل يرى المرأة ولا يشعر بحاجة إلى التعارف بينهما، والمرأة ترى الرجل ولا تحس أنه نصفها الثاني كما يقولون في تعابيرهم الجديدة، أو أن بها حاجة إلى تكميل نفسها به. لا يجذب أحدهما

الآخر أو يصغيه إليه أو يحرك فيه بواعث الشعر والغناء. ومتى امتنع الشعور الجنسي المتبادل بين الرجل والمرأة امتنع تبعًا لذلك ما نسميه الآن الجمال والحياء والخفر والدلال والوصل والهجر والغيرة وسائر أمثال هذه المعاني التي ترجع في مرد أمرها إلى الحب، وزالت عاطفة الأمومة والأبوة، وتجرد «البيت» من معناه، واستحال أن يكون «للأسرة» وجود، وتقوضت دعائم الاجتماع وصار الإنسان مخلوقًا «غير مدني بالطبع»! لا يخالجه غضب أو رضا أو حب أو بغض أو قوة أو أمل أو ندم، ولا خوف ولا يأس ولا احتقار ولا رحمة أو قسوة ولا غيرة أو إعجاب، وزايلته مادة الحياة الحاضرة بأسرها.

وعسى من يسأل: ولكن ألا يبقى له شيء؟ ألا يحتفظ بصفة واحدة أو شهوة من شهواته كالشهرة والحكم؟ كلا! حتى ولا هذه! لأنها جميعًا ليست إلا مظاهر للتعزي عن الخلود الممتنع في الحياة بخلود الذكر. وماذا يصنع الإنسان بالشهرة؟ ولماذا يطلبها وليس من يكترث لها أو يفهمها؟ وبأي شيء يريد أن يشتهر؟ الأدب معدومة بواعثه، والعلوم لا ضرورة إلى تحصيلها، والخير ليس خيرًا، والشر لم يعد شرًّا، ولا شيء هناك ينفع أو يضر، وما يُستطاع من الأعمال التي نعدها الآن أعمال بطولة مستحيل إذا ضمن الخلود. إذن ما هي البطولة الحربية مثلًا؟ هي أن تقوى بشجاعتك وبصرك بفنون القتال على سحق عدوك وإخضاعه لك. والسر في خضوعه هو هول الفتك به. والآن فتصور جيشين رجالهما خالدون وقل لي: كيف يستطيع أحدهما أن يقهر خصمه؟ إن الموت هو نفاد القوة الحيوية، والخالد لا يموت؛ أي لا تنفد قوته ولا يعروه نصب. فلا بد أن يظل الجيشان يتحاربان أبد الدهر بلا نتيجة، فأولى أن لا يتحاربان، وعلى أن الباعث على التقاتل يمتنع من تلقاء نفسه مع الخلود. وهب هذا الباعث الطمع أو شهوة التحكم أو غير ذلك فما محله مع الخلود؟ الطمع لا يشعر به الخالد لأنه بلغ أقصى غاية الطمع وصار في غنى عن كل

ما دونه. وشهوة التحكم يثيرها علمُ المرء أن في الناس الخنوع والخوف والجبن ورهبة القوة، والخلود يُعفي على هاتيك جميعًا ويقطع الطريق على نشوئها، وإذ كان لا فضل لإنسان على آخر ولا مزية، لأن الخلود سوَّى بين الناس، فكيف يمكن أن يلج بالمرء مثل شهوة الحكم و لا قوة له ينفرد بها، ولا في غيره عجز عما يطقيه ولا من وراء ذلك غاية؟

إذن فالناس إذا خلدوا يتجردون من كل صفاتهم ونزعاتهم وغرائزهم وعواطفهم وإحساساتهم التي نعرفها ونسير بها في حياتنا وفق طبائعها، ويحولون مخلوقات أخرى يستحيل على العقل الآدمي أن يتصور حالتها وما تكون عليه أو ما تغري به، وكل ما يهدينا إليه القياس هو أن كل ما للإنسان مما ذكرنا يصبح باطلًا ومحالًا. ومن هنا كان من السخافة المطبقة أن أتصور أن مثل ما يقع لنا في حياتنا يمكن أن يكون جائزًا مقبولًا ومحتملا مع الخلود في الآخرة. ولهذا لم يسعني إلا تمزيق القصيدة إذ كانت فكرتها قائمة على استحالة!

ولكن هل كان المتنبي يقصد إلى كل هذه المعاني حين قال:

ولا فـضل فيهـا للـشجاعة والنـدى وصـبر الفتـى لـولا لقـاء شـعوب؟

أليس الأرجح أن لو كان يدرك ما ينطوي تحت بيته هذا من المعاني التي استخلصناها لأتى عليها في بيت أو أبيات أخرى يُصفي فيها المسألة ويُبيِّن ما أغفل من الجوانب المتممة للفكرة؟ أليس أقرب إلى الصواب والأرجح في الرأي أن يكون هذا البيت قد جاء منه عفوًا كالشرارة تطير عن حافر الجواد وهو يعدو على الحصى والحجارة؟ وكما أن الجواد لم يتعمد أن يقدح الشرارة، كذلك المتنبي لعل تدفق الذهن في مجرى الكلام على الموت قاده عفوًا إلى هذا الخاطر دون أن يفطن إلى عمق ما كشف عنه. نقول: قد يكون هذا كذلك فما ننكر أن للذهن انتباهات يرى فيها حتى الغيب كما يقول ابن

الرومي:

وللـــنفس حـــالات تظـــل كأنهـــا تـــشاهد فيهـــا كـــل غيـــب سيـــشهد

ولكن السياق يرجح عكس ذلك، لأنه في معرض التقدم بالعزاء لسيف الدولة عن يهاكه التركي، وقد شاء أن يعزيه عن فقده بأن يبين له ضرورة الموت وفضله وأنه حتم لا مفر منه، فمضى يقول له: لو أن مَن سبقونا عاشوا أبدًا وخلدوا في الدنيا لما وجدنا نحن، فإذا كانت الحياة خيرًا فالفضل فيها للموت الذي عصف بسابقينا، وأراد أن يزيد في بيان ما للموت من الفضل وما ينتجه من المزايا ويخلقه في النفس من الخلال الحميدة، فقال بيته الذي جعلناه مدار هذا الفصل، ولعله تعمد أن يغفل أن الموت سبب الرذائل كما هو علة الفضائل، لأن المقام استوجب منه أن لا يذكر إلا حسنات الموت وأياديه البيضاء على الإنسانية، ليحمل سامعه على الرضا بهذا القدر المر. أو لعله لم يفطن حين قال هذا البيت إلى كل جوانب الفكرة التي ساقها. وما أظن شاعرًا أو كاتبًا لم يجرب ذلك: يخطر له المعنى فيبادر إلى تقييده، ثم يفطن فيما بعد إلى أنه لم يُحط بكل جوانبه. وقد يتيسر له أن ينقح ما كتب أو نظم فيوفي المعنى حقه، وقد تشغله الشواغل عن ذلك فيبقى المعنى ناقصًا وإن كان قد تمَّ ونضج في ذهن صاحبه. ويجيء ناقد مثلي أو مثلك أيها القارئ فيدرك هذا النقص في استيفاء المعنى ويفرح بذلك وينعاه على قائله ويطبل ويزمر ويقيم الدنيا ويقعدها كأنما يقول للناس: «تأملوا ذكائي وفطنتي! ما أعظمهما وأكبرهما! وما أشد إرباءهما على ذكاء صاحبكم الشاعر أو الكاتب الذي كنتم تحسبونه بذ الأوائل والأواخر!» وصاحبنا الشاعر أو الكاتب -إذا كان معاصرًا وكان واسع الصدر- يضحك ويقول: «ما أظلم الدنيا والحظ!».

ولعلي بعد أخطأت حين مزقت القصيدة، ذلك أن المرء ليس مطالبًا بما يفوق طرق

الإنسان ويجاوز مدى قدرته، وليس من العيب أن يعجزه أن بتصور الحياة الخالدة في الآخرة أو غيرها إلا على مثال الدنيا. وإنه ليكون من العنت البحت أن يطالب أحد بأن يكون صادق التصوير لنوع من الحياة لا يعلمه ولا هو يتاح له أن يجربه في مدى عمره أو عمر سواه من الخلق. وأحسب أن لو استطاع أحد أن يصف لنا حقيقة الحياة الخالدة لما وسعنا أن نفهمها نحن أبناء الموت، بل لبدت لنا حافلة بكل ضروب الاستحالات.

ولكني مع ذلك فعلتها! فكنت سخيفًا في الأولى والثانية!

obeikandl.com

(٥)
حكايات بخله - نقدها -
الحزم لا البخل - شاهد من شعره

زعموا أن المتنبي بخيل كز، وأنه أهان نفسه الكبيرة -أو التي زعمها كبيرة- في سبيل المال، وقالوا: إن بخله هذا ودعواه الشجاعة لا يتفقان، واعتمدوا في ذلك كله على مشهور الاعتقاد دون الانتقاد، وأخذوا فيه بالتقليد لا بالتمحيص والاختبار، وقابلوا أصحاب هذا الرأي بالتسليم والامتثال، ولم يعن واحد ممن قرأنا لهم في هذا الباب بأن يبين عوار ما روي عن الرجل وزلله وعلة الخطأ فيما حكوه عنه وخلله، وليس هذا من النقد الأدبي في شيء، ولا هو يدل على وجود الاستعداد لفهم الشعر على الوجه الصحيح. ويحسن بنا قبل أن نخوض في هذه المسألة أن نورد ما يستندون إليه في دعواهم.

حكوا أن أبا الفرج قال: «كان أبو الطيب يأنس بي ويشكون من سيف الدولة ويأمنني على غيبته له، وكان ما بيني وبينه عامرًا دون باقي الشعراء، وكان سيف الدولة يغتاظ من تعاظمه ويجفو عليه إذا كلمه والمتنبي يجيبه في أكثر الأوقات ويتغاضى في بعضها -قال أبو الفرج الببغاء هذا- وأذكر ليلة، وقد استدعى سيف الدولة بدرة فشقها بسكين الدواة، فمد أبو عبد الله بن خالويه طيلسانه فحثا فيه سيف الدولة صالحًا، ومددتُ ذيل دراعتي فحثا لي جانبًا، والمتنبي حاضر، وسيف الدولة ينتظر منه أن يفعل مثل فعلنا. فما فعل! فغاظه ذلك، فنثرها كلها على الغلمان، فلما رأى المتنبي أنها قد فاتته زاحم الغلمان يلتقط معهم، فغمزهم عليه سيف الدولة فداسوه وركبوه، وصارت عمامته في رقبته، فاستحى ومضت به ليلة عظيمة

وانصرف، فخاطب أبو عبد الله بن خالويه سيف الدولة في ذلك فقال: يتعاظم تلك العظمة وينزل تلك المنزلة لولا حماقته؟».

هذه هي أشهر القصص التي تروى عن المتنبي، وهي إذا أصبحت أدل على الحماقة منها على البخل، وعلى حماقة لحظة دون حماقة العمر التي تعيي المداوي، ولكن فيها مواضع للنظر تبعث على الشك في صحتها وتثير الريب في صدق راويها، ذلك أن أبا الفرج الببغاء لم يكن يحتاج إلى كل هذه المقدمة في بيان منزلته من أبي الطيب وإطلاعه على سره لو أنه كان حقيقة بحيث يصف نفسه. إذن لكان هذا معروفًا لا يحتاج إلى شرح، ومفهومًا بطبيعة الحال لا يستلزم أن يسوقه توطئة للحكاية، وليلاحظ القارئ كذلك أن أبا الفرج هذا جعل نفسه «شاهد عيان» للحادثة التي يرويها، ولو أنه كان يحكيها على أنه سمعها من المتنبي نفسه لفهمنا منه أن يقول عن نفسه في مستهلها أن المتنبي كان يأتمنه على غيبته لسيف الدولة، وأن ما بينهما كان عامرًا دون سائر الشعراء. فأما وهو شاهد عيان فلا محل على الإطلاق لهذه المقدمة التي يخيل لنا أنها دفاع سابق لتهمة مقدرة.

ولم يعرف عن المتنبي أنه كان ممن يغتابون الناس، وبخاصة سيف الدولة. وهذا بالبداهة لا يمنع أنه كان يشكو جفوته في بعض الأحيان، ولكن الغيبة شيء والشكوى شيء آخر، وما حاجة المتنبي إلى مؤتمن على الغيبة وهو يعلن عتبه ويذيعه في شعره السائر مسير الشمس حتى قبل أن يفارق سيف الدولة؟

وليس هناك من الشهود على صحة الحكاية غير ابن خالويه، وهذا خصم للمتنبي لا يصدق قوله فيه. وفي الحكاية مبالغة ظاهرة لا يعقل أن تصدر عمن كان كالمتنبي تعاظمًا وترفعًا. ومن ذا الذي يُصدِّق أن المتنبي يبلغ من حماقته واستهانته بكرامته أن لا يكتفي بمزاحمة الغلمان له على الدنانير حتى يرضى أن يدوسوه ويركبوه؟

وحكوا غير ذلك: أن أبا الطيب دخل مجلس ابن العميد وكان يستعرض سيوفًا، فلما نظر أبا الطيب نهض من مجلسه وأجلسه في دسته، ثم قال: اختر سيفًا من هذه السيوف، فاختار منها واحدًا ثقيل الحلي، واختار ابن العميد غيره، ثم قال كل واحد منهما: «سيفي الذي اخترته أجود» ثم اصطلحا على تجربتهما، فقال ابن العميد: «فبماذا نجربهما؟» فقال أبو الطيب: «في الدنانير يؤتى بها فينضد بعضها على بعض ثم تضرب به، فإن قدها فهو قاطع»، فاستدعى ابن العميد عشرين دينارًا ثم ضربها أبو الطيب فقدها في المجلس، فقام من مجلسه الفخم يلتقط الدنانير المتبددة، فقال ابن العميد: «ليلزم الشيخ مجلسه، فإن أحد الخدام يلتقطها ويأتي بها إليك» فقال أبو الطيب: «بل صاحب الحاجة أولى».

نقول: والاختراع في الحكاية واضح، وحسب القارئ أن ننبهه إلى أنها ناقصة! ماذا فعل ابن العميد بسيفه الذي اختاره؟ لقد عرفنا أن المتنبي جرب سيفه فقدَّ به الدنانير فتبين له ولغيره أنه قاطع، ولكنا لم نعرف شيئًا عن سيف ابن العميد. وهذا على الرغم من أن القصة محورها الخلاف على أي السيفين أقطع!!

ومن هذا النقص يتبين للقارئ أن الراوي -وهو مجهول!- إنما ساق الحكاية للتنديد بالمتنبي، ولهذا نسي أن يتمها على عادة المشنعين، ولهذا أيضًا تحرى فيها أن يحمل السامع أو القارئ على ازدراء عمل المتنبي، وذلك بأن يفخم من أمره لتزداد الهوة التي انحدر إليها عمقًا، فجعل ابن العميد يتخلى له عن مجلسه، ثم يعرض عليه السيوف دون الحاضرين جميعًا ويفرده فضلًا عن ذلك باختيار واحدًا لنفسه. ثم يأبى الراوي المجهول إلا أن يجعل المتنبي يختار سيفًا كثير الحلي ثقيلها ليوقع في روعك أن أبا الطيب نظر إلى الحلي ولم ينظر إلى مهز السيف وفرنده. ثم بعد ذلك يقيم المتنبي من مجلسه ليلتقط الدنانير ويجسم لك الأمر فيصف المجلس -هنا فقط- بأنه فخم!

وبعد، فهل بقيت بنا أو بالقارئ حاجة إلى تقصي أخبار البخل المروية عن المتنبي لنزنها ونحصها؟ لست أشعر بالحاجة إلى ذلك. وأكبر ظني أن بالقارئ مثل استغنائي عنه، فإذا شاء المزيد فعليه بالصبح المنبي وأشباهه من كل كتاب لم يتوخ صاحبه إلا مجرد النقل حتى لتحسبها جميعًا لرجل واحد لولا ما تلمحه من قصد هذا إلى الدفاع، ومن تعمد ذلك الزراية والتشهير. ولو أن هؤلاء أو غيرهم من الكُتَّاب المعاصرين الذين رأينا لهم كتبًا في هذا الباب نظروا إلى شعر الرجل باعتباره صورة لنفسه وجوانبها المتعددة لنبذوا هذه القصص، ولفطنوا إلى أن المتنبي لم يكن بالرجل البخيل وإنما كان رجلًا يعرف قيمة المال وما له من الأثر البالغ في الحياة.

ولقد عرف القارئ مما كتبنا عن المتنبي، ومن شعره نفسه، أنه كان «يتعاطى كبر النفس وعلو الهمة وطلب الملك» كما يقول أبو البركات بن أبي الفرج المعروف بابن زيد التكريتي الشاعر. ولم يكن يخفى على المتنبي أن المال «عضل» المساعي والمطالب الضخمة كما يقولون، أو «زندها» كما يقول المتنبي. والمال عند المتنبي لم يكن مطلوبًا لذاته، ولا لأن له قيمة قائمة بنفسها، ولا لأن به مرضًا يدفعه إلى التماسه وتكديسه، بل لأنه عونٌ على الغايات، وفي ذلك يقول:

وما رغبتي في عسجد أستفيد ... ولكنها في مفخر أستجده

ويقول لكافور وهو يمدحه ويطلب منه الولاية التي جاءه طامعًا فيها:

وأتعب خلق الله من زاد همه ... وقصر عما تشتهي النفس وجده

فلا ينحلل في المجد مالك كله ... فينحلّ مجد كان بالمال عقده

ودبّره تدبير الذي المجدُ كفه ... إذا حارب الأعداء والمال زنده

فلا مجد في الدنيا لمن قلّ ماله ... ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

أي أنه يقول: أشقى الناس من زادت همته وقصر ماله عن مبلغ ما يهم به، وينصح لكافور أن لا يُسرف في العطاء فيذهب ماله كله في طلب المجد والرياسة؛ لأن المجد لا يعقد إلا بالمال، فإذا ذهب المال انحلّ ما كان معقودًا به. وكما أن الضرب لا يكون إلا باجتماع الكف والزند، كذلك المجد والمال قرينان. وصاحب المال بلا مجد فقير زريٌّ، وصاحب المجد لا مال موشك أن يزول عنه مجده.

وقد زعم بعضهم أنه إنما يصف كافورًا بالبخل في هذه الأبيات لأنه حرمه وضمن عليه ببغيته، وأنه سلك في ذلك مسلك كثيّر إذ دخل على هشام فمدحه فلم يثبه فقال كثيّر يخاطبه:

إذا المال لم يوجب عليك عطاؤه ... صنيعة تقوى أو خليلًا توافقه

منعت وبعض المنع حزم وقوة ... ومجد ولا يعنيك إلا حقائبه

فقيل لكثيّر: ما حملك على أن تعلم أمير المؤمنين البخل؟ فقال: إنه منعني من رفده، وآلمني برده، فأردت أن أحبب إليه المال، فيمنع غيري كما منعني، فيتفق الناس على ذمه!

وهي حكاية مخترعة. والحقيقة الواضحة أن بعض المولعين بالتأليف عثر على هذين البيتين في قصيدة كثيّر، فوجدهما غريبين من شاعر يريد أن يمدح ملكًا بالكرم ليستوكف رفده، فنسج حولهما هذه القصة السخيفة. فقد كان هشام بخيلًا بطبعه لا يحتاج أن يعلمه كثيّر الحرص، ولو كان جوادًا لما بلغ كثيّر عزة غايته منه ببيتيه هذين.

وفرقٌ بين بيتيه وأبيات المتنبي التي يوصي فيها بالحزم وضبط الأموال لغاية مفهومه معقول أن يضبط لها المال. وقد صارت القضية الآن جلية بعد الذي سقناه، رجل له غاية معينة، يريد أن يوفر لها الوسائل، وأن يحشد لها المال، في غير كزازة، إذ كان المال أقوى أداة، وأمتن وسيلة.

تقليد القدماء

كتبنا نقد حافظ منذ أعوام، ولم يكن الباعث لنا عليه، كما حسب بعض البله والحمقى، ضغينة نحملها للرجل أو عداوة بيننا وبينه. وكيف يكون شيء من ذلك ولا علم لنا به ولا صداقة ولا صحبة[٢٣]، ولا نحن نرتزق من الكتابة والشعر، أو نزاحمه على الشهرة، لأن ما بيننا من تباين المذهب واختلاف المنزع لا يدع مجالًا لذلك. ولكني لسوء الحظ أَحدُ من يمثِّلون المذهب الجديد الذي يدعو إلى الإقلاع عن التقليد والتنكيب عن احتذاء الأولين فيما طال عليه القدمُ ولم يعد يصلح لنا أو نصلح له. أقول: لسوء الحظ، لأنه لو كان الناس كلهم يرون رأينا في ضرورة ذلك، وفي وجوب الرجوع عن خطأ التقليد لربحنا من الوقت ما نخسره اليوم في الدعوة إلى مذهبنا ومحاولة رد جمهور الناس عن عادة إذا مضوا عليها أفقدتهم فضيلة الصدق ومزية النظر، وهما عماد الأدب وقوام الشعر والكتابة.

ولو كان الناس اعتادوا النقد وألفوا الصراحة في القول وتوخي الصدق في العبارة عن الرأي، لما كانت بي حاجة إلى هذه المقدمة أو ضرورة إلى تبرئة نفسي ودفع ما يرمونني به، ولكنت أنشر النقد على ثقة من حسن ظن القراء بي وبخلوص نيتي وبراءة سريرتي مما تصفه الأوهام ويصوره الجهل. ولكنا لسوء الحظ مضطرون أن نثبت حسن القصد في كل ما ننقد كأن المرء لا يمكن أن يفعل شيئًا إلا ودافعه

---

[٢٣] نقدنا شعر حافظ في (١٩١٣) ثم جمعنا متفرقه وطبعناه في (١٩١٤-١٩١٥) وجعلنا هذا المقال مقدمة له؛ ولم يكن بيننا يومئذ وبين حافظ أية صلة، وقد أثبتنا هذا المقال هنا لدلالته على حال الأدب يومئذ.

الضغائن والأحقاد! ومن سوء حظ الناقد في مصر انه يكتب لقوم لا يستطيع أن يركن إلى إنصافهم أو يعول على صحة رأيهم. وليسامحني القراء في ذلك فقد رأيت عجبًا أيام كنت أنشر هذا النقد: من ذلك أني كنت إذا قلت: إن حافظًا أخطأ في هذا المعنى أو ذاك، قال بعضهم: «لم يخطئ حافظ وإنما تابع العرب، وقد ورد في شعرهم أشباه ذلك»، كأن كل ما قال العرب لا ينبغي آن يأتيه الباطل ولا يجوز إلا أن يكون صحيحًا مبرأ من كل عيب! إلى غير ذلك مما يُغري المرء باليأس ويحمله على القنوط من صلاح هذه العقول!

وإذا فرضنا أن العرب أصابوا في كل ما قالوا، أفترى ذلك يستدعي أن نقصد قصدهم ونحتذي مثالهم في كل شيء ونحن لا نحيا حياتهم؟ ألسنا الوارثين لغتهم وللوارث حق التصرف فيما يرث؟ هل تقليدك العرب وجريك على أسلوبهم يشفعان لك في خطأ نحوي أو منطقي؟ كلا! إذًا فكيف يشفع لك في غير ذلك مما لا يصح في العقول ولا يتفق مع الحق؟ وكيف نتحاكم إلى العقل في الأولى ولا نستقضيه في الثانية؟

لا ننكر ما لدراسة الأدب القديم من النفع والفائدة، وما للخبرة ببراعات العظماء، قديمهم وحديثهم، من الفائدة والأثر الجليل في تربية الروح، ولكنه لا يخفى عنا أن ذلك ربما كان مدعاة لفناء الشخصية والذهول عن الغاية التي يسعى إليها الأديب والغرض الذي يعالجه الشاعر، والأصل في الكتابة بوجه عام.

على أنه مهما يكن فضل القدماء ومزيتهم فليس ثَمَّ مساغ للشك في أنك لا تستطيع أن تبلغ مبلغهم من طريق الحكاية والتقليد. فإن الفقير لا يغنى بالاقتراض من الموسرين. ولست أقصد إلى نبذ الكُتَّاب والشعراء الأولين جملة وعدم الاحتفال بهم فإن هذا سخف وجهل، ولكني أقول: إنه ينبغي أن يدرس المرء في كتاباتهم الأصول

الأدبية العامة التي لا ينبغي لكاتب أن يحيد عنها أو يغفلها بحال من الأحوال - كالصدق والإخلاص في العبارة عن الرأي أو الإحساس- وهذا وحده كفيل بالقضاء على فكرة التقليد.

(وبعد) فإنه لا يسع من ورد شِرعة الأدب، وعلم أنه يحتاج إلى مواهب وملكات غير الكد الدءوب والاحتيال في حكاية السلف والضرب على قالبهم والاقتباس بهم فيما سلكوه من مناهجهم، ومن تبسط في شعر الأولين، لا ليسرق منه ما يبتني به بيوتًا كبيوت العنكبوت ولكن ليستعين بنوره ويستعين به على استجلاء غوامض الطبيعة وأسرارها ومعانيها، وليهتدي بنجوم العبقرية في ظلمة الحياة وحلوكة العيش، وليتعقب بنظره شعاعها المتغلغلة إلى ما لم يتمثل في خاطر ولم يحلم به حالم -أقول: لا يسع من هذا شأنه وتلك حاله إلا أن ينظر إلى حال الأدب العصري نظرة في طيها الأسف والخيبة واليأس، وكأنما شاءت الأقدار أن يذيب أحدنا نفسه، ويعصر قلبه، وينسج آماله ومخاوفه التي هي آمال الإنسانية ومخاوفها، ويستوري من رفات آلامه شهابًا يضيء للناس وهو يحترق، ثم لا يجد من الناس أخًا حنَّانًا يؤازره ويعينه على الكشف عن نفسه وإزاحة حجب الغموض عن إحساسات خياله التي ربما التبست على القارئ لفرط حدتها أو غابت في مطاوي اللفظ واستسرت في مثاني الكلام.

أليس أحدنا بمعذور إن هو صرخ وبه من سانح اليأس خاطر: «يا ضيعة العمر! أقص على الناس حديث النفس، وأبثهم وجد القلب ونجوى الفؤاد، فيقولون: ما أجود لفظه أو أسخفه! كأني إلى اللفظ قصدت!!! وأنصب قِبل عيونهم مرآة للحياة تريهم، لو تأملوها، نفوسهم باديةً في صقالها فلا ينظرون إلا إلى زخرفها وإلى إطارها وهل هو مفضض أم مذهب، وهل هو مستملح في الذوق أم مستهجن؟ وأفضي إليهم بما يُعيي أحدهم التماسه من حقائق الحياة فيقولون: لو قلت كذا بدل كذا لأعيا

الناس مكان ندك! ما لهم لا يعيبون البحر باعوجاج شطآنه وكثرة صخوره؟ يا ضيعة العمر!!».

سيقولون: ما فضل مذهبكم الجديد على مذهبنا القديم؟ وماذا فيه من المزية والحسن حتى تدعوننا إليه؟ وبأي معنى رائع جئتم؟ وماذا ابتكرتم من المعاني الشريفة والأغراض النبيهة؟ فنقول: قد لا يكون في شعرنا شيء من هذه المعاني الشريفة والأغراض النبيهة التي تطلبونها وتبحثون فيه عنها ولا تألون (أنتم) جهدًا في الغوص عليها وفتح أغلاقها والتكلف لها! وقد لا نكون أحسنا في صوغ القريض ورياضة القوافي ولكن خيبتنا لا يصح أن تكون دليلًا على فساد مذهبنا وعقمه، إذا صح أننا خبنا فيما تكلفناه وهو ما لا نظنه، بل هي دليل على تخلف الطبع لا أكثر. وعلى فرض ذلك كله فإن لنا فضل الصدق وعليكم عار الكذب ودنيئة الافتراء على نفوسكم وعلى الناس جميعًا، وحسبنا ذلك فخرًا لنا وخزيًا لكم!

ليس أقطع في الدلالة على أنكم لا تفهمون الشعر، ولا تعرفون غاياته وأغراضه، من قولكم: إن فلانًا ليس في شعره معانٍ رائعة شريفة، لأن الشاعر المطبوع لا يعنت ذهنه ولا يكد خاطره في التنقيب على معنى لأن هذا تكلف لا ضرورة له. أوَليس يكفيكم أن يكون على الشعر طابع ناظمه وميسمه، وفيه روحه وإحساساته وخواطره ومظاهر نفسه سواء أكانت جليلة أم دقيقة، شريفة أم وضيعة؟ وهل الشعر إلا صورة للحياة؟ وهل «كل» مظاهر الحياة والعيش جليلة شريفة رفيعة حتى لا يتوخى الشاعر في شعره إلا كل جليل من المعاني ورفيع من الأغراض؟ وكيف يكون معنى شريف وآخر غير شريف؟ أليس شرف المعنى وجلالته في صدقه؟ فكل معنى صادقٍ شريفٌ جليل.

ألا إن مزية المعاني وحسنها ليسا فيما زعمتم من الشرف، فإن هذا سخف كما أظهرنا

فيما مر، ولكن في صحة الصلة أو الحقيقة التي أراد الشاعر أن يجلوها عليك في البيت مفردًا أو في القصيدة جملة، وقد يتاح له الإعراب عن هذه الحقيقة أو الصلة في بيت أو بيتين، وقد لا يتأتى له ذلك إلا في قصيدة طويلة، وهذا يستوجب أن ينظر القارئ في القصيدة جملة لا بيتًا بيتًا كما هي العادة، فإن ما في الأبيات من المعاني، إذا تدبرتها واحدًا واحدًا، ليس إلا ذريعة للكشف عن الغرض الذي إليه قصد الشاعر وشرحًا له وتبيينًا.

وأنتم فما فضل هذا الشعر السياسي الغث الذي تأتوننا به الحين بعد الحين وأي مزية له؟ وهل تؤمنون به؟ وهل إذا خلوتم إلى شياطينكم تحمدون من أنفسكم أن صرتم أصداء تردد ما تكتبه صحف الأخبار؟ وهل كل فخركم أنكم تمدحون هذا وترثون ذاك؟ وأنتم لا تفرحون بحياة الواحد إلا لماله، ولا تأملون موتَ الآخر إلا لانقطاع نواله؟ ما أضيع حياتكم!

ليس أدل على سوء حال الأدب عندنا من هذا الشك الذي يتجاذب النفوس في أولى المسائل وأكبرها. ولقد كتب نقاد العرب في الشعر، على قدر ما وصل إليه علمهم وفهمهم، ولكنهم لم يجيئوا بشيء يصلح أن يتخذ دليلًا على إدراكهم لحقيقته. ولسنا ننكر أن كُتَّاب الغرب متخالفون في ذلك، ولكن تخالفهم دليل على نفاذ بصائرهم وبُعد مطارح أذهانهم ودقة تنقيبهم وشدة رغبتهم في الوصول إلى حقيقة يأنس بها العقل ويرتاح إليها الفكر، كما أن إجماع كُتَّاب العرب وتوافقهم دليل على تقصيرهم وتفريطهم وأنهم كانوا يقلد بعضهم بعضًا إن لم يكن دليلًا على ما هو أشين من ذلك وأعيب.

غير أن هذا القلق والشك المستحوذين على النفوس لعهدنا هذا هما الكفيلان بأن يفسحا رقعة الأمل ويطيلا عنان الرجاء؛ لأن القلق دليل الحياة، والشك آية الفطنة، وما يدرينا لعلنا في غد نجني من رياض هذا القلق أزاهير السكينة والطمأنينة!